الدعوة الإسلامية

تاريخها ومناهجها

دائرة معارف كبرى

الرسول

صلى الله عليه وسلم

أنور الجندي

طبع بدار الطباعة والنشر الإسلامية

١٩ شارع عطفى بك سرى بالحلمية الجديدة بمصر

تاريخ الدعوة الإسلامية في القرن الأول الهجري

(١) الرسول: حياته وتاريخه

١٣٦٧ هـ

١٩٤٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الرجل ...

الذى علمنا كيف نفهم الحياة ، ونستلهم التاريخ ، ونستفيد به فى رفعة حاضرنا والسمو بأنفسنا .

إلى الرجل ....

الذى علمنا كيف نوجه سير التاريخ ونؤثر فى مجراه ونحول تياره نحو الحق والخير والإيمان .

إلى فضيلة الأستاذ الامام حسن البنا قائد الدعوة الاسلامية

أهدى هذه « الموسوعه » وكل خير فيها هو قبس من فيض علمه أو أثر من توجيهه . .

وكل مافيها من خطأ فهو من اجتهاد الكاتب الضعيف الذى مازال يلتمس من أستاذه مزيداً من الفيض والتوجيه ؟

أنور الجندى

دائرة معارف الدعوة الاسلامية . . .

ذلك هاهو مانريده من هذه « الموسوعه » التى نصدر أجزائها مفصلة ، كل « وحدة » منها كتاب مستقل فى موضوعه ، ولكنه حلقة من حلقات الدعوة الإسلامية ، نسأل الحق تبارك وتعالى عونه وتوفيقه فى كل مايتصل بها . . .

كيف يكتب التاريخ :

ذلك بحث طويل ، لانستطيع أن نستوفيه فى مقدمة هذه المجموعة ، ولانحب أن نسهب فيه فنفوت على القارىء العزيز غايته ورغبته فى قراءة تاريخ الدعوة الإسلامية مكتوبا بأسلوب جديد ، وعلى طريقة « دعوة » تستهدف وتستلهم ، لا على طريقة السرد التاريخى الصرف .

قرأت كتب « التاريخ الإسلامى » الجديدة ، فوجدتها بين كتب لم يقصد بها إلا السرد التاريخى الصرف ، فهى روايات مجموعة مرتبة تسجل الأحداث على رواية من رواياتها دون أن تعرف مدى أثر هذه الرواية فى « واقع » الدعوة الاسلامية الممتدة على الأجيال ، . أو دراسة نفسية صرفة ، لا تستخلص العبرة إلا فى ناحية من نواحى البطوله ، أو صور من التاريخ

أملاها الهوى ، والحفيظة والغرض ، فيها تحيز إلى هذه الرواية أو تلك ، وتأييد لهذا الحدث أوذاك ، لغاية فى نفس « يعقوب » والقارىء المثقف فى حيرة والأخ المسلم فى اضطراب لايدرى أيها يأخذ وأيها يدع . .

ومن كتاب تاريخنا « أدعياء » للغرب وأبطاله وزعمائه يريدون منا أن نعرف عن نابليون والاسكندر وقيصر أكثر مما نعرف عن خالد وسعد وصلاح الدين،وفى كتابنا ، أمااستعلاء عن القارىء المتوسط حتى لايقرأ ، وإذا قرأ لا يفهم أو نزول إلى مستواهم طمعاً فى مالهم ورضاهم ، وفى الأول «ارستقراطية» علمية وفى الثانى حرص على الأفكار الخاطئة والروايات الهزيلة وخوف من نقض الأوهام والشبهات والاسرائيليات .

وكتابنا ـ غفرالله لهم ـ نظروا إلى التاريخ الاسلامى نظرتهم إلى أى تاريخ آخرلاصلة له بهم ، فقدقرأوه كما يقرأ تاريخ الرومان واليونان والوندال والهنود الحمر ـ استغفر الله ـ فقدأشاد بعض كتابنا بأمجاد اليونان والرومان أكثر مما أشادوا بأمجاد المسلمين بل لقد بلغوا فى ذلك آخر الشوط فأساءوا إلى تاريخ المسلمين على حساب التمجيد لتاريخ اليونان والرومان .

وكتب (بعض) مؤرخينا عن الاسلام وتاريخه فكانوا ـ فيما كتبوا ـ إجراء للمستعمرين وخصوما للأسلام ،كانوا إجراء

يوم شوهوا بعض معالم الاسلام ، فقد دسوا فى داخل الدسم سماً ، وحاولوا أن ينكروا ما أجمع عليه المسلمون من حقائق وأصول .

وتاريخ الاسلام اليوم عدة فى يد بعض المستعمرين يحاربون به فى الشرق مذهب الشيوعية ، ويهدمون به نظرية « التفسير المادى » وإذا كان تاريخ الاسلام يهدم هذه النظرية ، فليذكر هؤلاء الذين يستغلون تاريخ الاسلام هذا الوجه ، الشيوعية أن لايهدمها إلا إنفاذ دعوة الاسلام الحقه ونظامه الكامل إلى مجال التنفيذ والتطبيق .

ولقد أخرجت المطابع فى السنوات الأخيرة دراسات نافعة لكتاب من أبرز كتاب مصر ، ومع أن هذه الكتب قد جلت الكثير من غامض الصور فى عدالة وإنصاف ، إلا أنها مع ذلك لاتؤكد لنا أن كتابها يؤمنون بأن « الفكرة الاسلامية » التى شرحوا بعض مذاهبها وأهدافها وأبطالها ـ صالحة للتطبيق على اعتبار أنه ـ أى الاسلام ـ منذ بزغ فجره ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها هو دين ودولة ، ونظام اجتماعى وسياسى وتشريعى شامل ، وإنما جرى حديث كتابنا مجرى التقدير لصور من البطولة أو صفحات من المجد دون أن تحمل فى أعماقها حاجة الانسانية المعذبة والشرق المكبل بقيود الاستعمار إلى تطبيق هذا النظام الكامل .

كل هذا دعانى إلى أن أحاول كتابة التاريخ الاسلامى على نسق جديد .

. . . صحيح ، إنها مهمة شاقة عسيرة ، وأن الكثير من إخوانى أقدر على أداء هذا الواجب منى ، ولكننى وقد عزمت أرجو أن تكون هذه حفريات صغيرة يأتى بعدها الكشف عن الكنوز إن شاء الله .

أكتب هذا ، للقراء جميعاً ، وأعنى متوسطيهم ، فهؤلاء هم عماد النهضات ، وعدة الأمل فى ابتعاث الفكرة الاسلامية ، وهم أصحاب القلوب المؤمنة ، والنفوس الصافيه ، التى لم تصب بعد بتعقيدات الفلاسفة ، ولا مضاربات المذاهب ولا مصادمة التيارات .

أكتب تاريخ الدعوة الاسلامية بروح المؤمن بالاسلام ، دعوة ودولة ، الفاهم للاسلام على أنه دين وسياسة ، الواثق بأنه عدة الظفر وسلاح النصر فى الشرق الذى لن يصلح أمره إلا بالعودة إلى هذه المبادىء باعتبارها عماد حركة التحرير والرجوع إلى هذا النظام باعتباره مصدر العدالة والكرامة والحرية

نظام الاسلام الشامل الكامل ، الباقى على القرون والأزمان الصالح للناس كافة ، المبعوث به محمد بن عبد الله ليكون للعالمين نذيراً « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » .

أكتب تاريخ الاسلام لا ليكون قصة يتلهى بها ، أو ترجمة يتسلى بقراءتها ، ولكنى أكتب للدرس الشامل ، والاحاطة الكاملة ، ولربط حلقات الدعوة بعضها ببعض . الرسول، والقرآن والاسلام ، والفتح ، والحضارة ، والرجولة ، والنظام ، والأخلاق ، والتشريع ، والسياسة .

وبالجملة فأنى أحاول أن أجعل هذا الكتاب

« دائرة معارف للدعوة الاسلامية »

وسأتناول هذا البحث ، قرنا قرنا ، فأجمل تاريخ كل قرن هجرى ، وأسرد تاريخه ، ثم أفصل الحياة السياسية والاجتماعية والحربية والعقلية فيه تفصيلا ، تغلب عليه الموضوعية والوضوح والتبسيط ، جاهداً أن أبعد عن هذه الدراسة تفاصيل الأمور المتشعبة التى يحتاج إليها العلماء المتخصصون وأصحاب الترف الذهنى ، أكثر مما يحتاج إليها القارىء المثقف الذى يريد أن يلتهم هذه الدراسات فى سرعة ودون إجهاد عقلى كبير . .

والله أسأل أن يمدنا بعونه وفيضه ، وأن يتقبل منا هذا العمل الضئيل بقبول حسن ، وأرجو من الاخوان والقراء أن يلفتوا نظرى كلما ند فى القلم ، وكل بنى آدم خطاء ، حتى نرجع إلى الحق ونعيش فى كنفه .

والله ولينا وهو نعم المولى ونعم النصير .

وصلى الله على سيدنا محمد نور الكون وجماله ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين والله أكبر ولله الحمد ؟

ا . ج .

الدعوة الاسلامية : تاريخ ومنهاج

قمة المجد فى (تاريخ) الدعوة

والنموذج العملى فى (منهاجها) هو رائدها الأول . .

« محمد » صلى الله عليه وسلم

تاريخ الرسول

« صلى الله عليه وسلم »

« إن الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل ، واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم »

« كنت نبيا وآدم بين الماء والطين ، إنى عبد الله وخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته . إنى دعوة أبى ابراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمى »

« إجمال له تفصيل »

محمد رسول الله

« هذه ترجمة موجزة ، وسرد تاريخي ، وخطوط سريعة لتاريخ رسول الله الضخم الذاخر بالبطولة ، الفياض بالهدى ، المليء بالعبر ـ أقدمها « مضطراً » بين يدي البحث المفصل ، والدراسة الوافية عن « شخصية رسول الله » التي تعتبر بحق التطبيق العملي لأخلاق القرآن

وحياته « صلى الله عليه وسلم » مدرسة ضخمة من الرجولة والزعامة والقيادة والإيمان في أرق مدارجها وأرفع صورها .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى للانسان الكامل ، الذي جمع في شخصه كمال الدعوة الإسلامية وشمولها ، فهو العابد المؤمن ، والمحارب المجاهد ، والقاضي العادل والحاكم اليقظ ، وهو الذي ملك قيادة الزعامة والأخوة بأرفع ما امتلكها زعيم أو قائد .

وسيرة رسول الله دعامة القول وجماعه في الاسلام وتاريخه ، والقرآن وتنزيله ، ومنها تستمد الأجيال الهدى والعبرة ، والمثل والقدوة . وكل كلام يقال في جانب شخصية رسول الله قليل مهما بلغ من الفصاحة أو البلاغة أو الاعجاز . صلى الله عليه وسلم »

مولده

ولد يتيما من الأب وماتت أمه وهو طفل ، وتنقل بين كفالة جده عبد المطلب وعمه أبو طالب . وأرضعته حليمة بنت أبي ذويئبة السعدية ، بعد أن إعرضت عنه المراضع ليتمه ، وقد ترددت بين أن تأخذه وأن تدعه ، حتى إذا أظعنت كرهت أن ترجع بغير رضيع وقالت : والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم ولآخذنه ، وقال زوجها: لاعليك أن تفعلى ، وعسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

أقام صلى الله عليه وسلم بالصحراء فى بنى سعد إلى الخامسة من عمره حتى كان يقول فيما بعد لاصحابه : أنا أعربكم ، أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر »

رحل إلى الشام فى الثانية عشرة من عمره ، واشترك فى حرب الفجار وجمع السهام التى تقع من هوازن ودفعها إلى أعمامه ، ثم حمل السهام ثم رمى السهام بنفسه .

واشترك فى حلف الفضول وكان يقول « ما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم ، ولو دعيت به لأجبت »

ورعى الرسول صلى الله عليه وسلم الغنم وكان يقول « ما بعث الله نبيا إلا راعى غنم .

(الوحى) ثم كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم استنبىء على رأس الأربعين ، وألقيت على قلبه كلمة الحق ، لأول مرة فى غار حراء فكان الإسلام دعوة فى قلب « فرد »

٣
الرســـالة

وأرسله الله تعالى إلى قومه داعياً إلى الإسلام ببطن مكة من الجزيرة العربية ، وكانت مكة على الوثنية المحرقة من عبادة الأصنام فأسر بالدعوة حتى أذن الله له أن يجهر بها : فدعاعشيرته الأقربين ، ثم أذاع الدعوة فى الناس جميعاً . فا كتمل له فى ست سنوات أربعين رجلا إلا واحدا .

وقد أخذته قريش بالمساءة ، فما تركت سلاحا من أسلحة (الاضطهاد) إلا اصطنعته له ، باللسان واليد وإلقاء التراب والروث ، وتعذيب أتباعه فما ضجر لذلك ، بل استقبله صابرا محتسبا ، مؤمنا بتأييد ربه ونصره .

والوحى رواح غداء ، بآى الذكر الحكيم ، يثبت به فؤاد النبى ويرسل إليه مزيدا من التأسى والاصطبار ويروى له ما كان من جهاد الأنبياء والرسل من ذوى العزم - مع الناس من قبل وما لقى هؤلاء وأولئك من تعذيب واضطهاد ، فصبروا على ما أوذوا حتى أتاهم نصر الله .

« إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » ذلك هو نذير النبوة الأول « لتكذبن ولتؤذين ولتخرجن » وهذا هو نذيرها الثانى

ثم ماذا ؟

حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا . أتاهم نصرنا »

حاولت قريش مع رسول الله المحاولات ، ترده عما يدعو إليه ، تعمد إلى اللين تاره وإلى التهديد تارات ، ثم احتكمت إلى عمه فى أمره مرات ، وساومته صلى الله عليه وسلم على أن تجعله ملكا أو غنيا ، فكان رده تلاوة آيات من القرآن ، كانت موضع التأثير البالغ فى نفس مساومة . فمضى على أثرها مذهولا مأخوذا .

المقاطعة

واشتدت وطأة قريش على رسول الله وأصحابه لما رأت من كثرة اتباعه فتآمرت على عقد « مقاطعة اقتصادية » قاسية ، كتبت بها صحيفة علقت فى جوف الكعبة . وحصرت بها محمداً وأصحابه فى « شعاب » مكة ثلاث سنوات ، لايبيعون ولا يتباعون ، كان طبيعيا بعدها أن يأمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة علهم يجدوا بها حظاً من الأمن والحرية. فهاجر فريق منهم فاراً بدينه من طغيان قريش ..

هجرة الطائف

ولما يقف أمر الاضطهاد عند هذا الحد ، بل تعداه إلى أشد حالاته ، بعد موت أبو طالب وخديجة ، وانتهى أمر ذلك إلى هجرة رسول الله ﷺ إلى الطائف . فوجد من أهلها أقسى مما لقى من قريش ، عسفا ومساءه ، فقد تألبوا على قتله ، فلما انصرف رشقوه بالأحجار فى عقبيه الشريفتين حتى دميتا ، فلما اشتد به . جلس يستجمع قواه ، ودعا دعاءه المعروف « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس »

واستمع إليه جن نصيبين فاسلموا بعد أن استمعوا إلى القرآن وأقام (بنخلة) أياما قبل أن يعود إلى مكة ، وقال له رفيقه زيد ابن حارثة : كيف تدخل عليهم مكة وقد أخرجوك ، قال يازيد: إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه

ـ وامتدت أعوام الاضطهاد بالمسلمين قبل الهجرة إلى المدينة ثلاثة عشر عاما منذ أذن رسول الله بدعوته ، وامتدت مع هذه الأعوام صور العنت فى مختلف ألوانه وصوره ، صباح مساء ، ما يزعزع ذلك من ايمان رسول الله وصحبه شيئا ، بل كان يزيدهم قوة وإيمانا وصبراً ويقينا، والرسول بين ظهرانى المسلمين، يلقاهم

فى ابتسامته الكريمة ، وبشاشته الرضية ، ويذكرهم بوعد الله بالنصر وإنه لآت . .

٣

ـ ودهشت قريش لأمر رسول الله وأمر أتباعه ،وأغراها هذا الصبر والثبات على المحن ، إلى أن تسترسل فى غيها ، وتزداد فى أعناتها ، وقريش مع هذا كله تعلم صدق محمد ، لكن كبرياءها وتمسكها بمخلفات الآباء من مجد وهمى ، ظل يصرفها عنه صرفا ، ويزيدها إلى اضطهاده دفعا . وهى تتعلل إلى ذلك بالعلل ، (أنؤمن لك واتبعك الأرزلون) إنه التعصب البالغ لمخلفات الآباء والحقد البالغ على ما أوتى محمد (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وهم مع هذا الحقد ، يتسللون إلى مصلى رسول الله فيستمعون إلى قرآنه ليلة فليلة .

ـ ثم مضى كل فى طريقه : رسول الله دائب على إبلاغ دعوته لا يضيره من أمر هذا التآمر شيئا ، وقريش ساعيه فى طريقها تبحث عن الوسائل التى ترد بها الناس عن دعوة الحق ، أو تقضى بها على محمد وأمره وصحبه . . حتى أسرى به صلى الله عليه وسلم ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إلى السماء ، ثم مالبث أن عاد إلى فراشه قبل أن يشرق الصباح وقد فرض عليه ربه الصلاة ، فلما أصبح أخبر الناس فاشتد تكذيبهم له ،

وارتابت قريش لحديثه ، وأخذ فريق منهم يسائلونه عن امر بيت المقدس وصفته ، وهو يجيبهم ، وما يقنعهم ذلك ، أو يرسل إلى قلوبهم بصيص من الإيمان بدعوة محمد ﷺ .

وقد ارتد عن الإسلام بعد هذا الحدث فريق من ضعاف الإيمان الذين أصابت نفوسهم الريب فى أمر الاسراء والمعراج .

(يثرب) ومالبث أمر الدعوة الإسلامية أن تكشف عن ضياء جديد يأتى من طريق « يثرب » فقد أخذ رسول الله يعرض نفسه على القبائل حتى جاء سبعة من أهلها ، التقوا برسول الله عند العقبة ، فلما سمعوا منه قالوا : والله إن هذا هو الذى تواعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه .

فلما انصرفوا إلى قومهم ، وافوا الموسم عام قابل وهم اثنى عشر ، فبايعهم رسول الله بيعه العقبة الأولى ، وبعث معهم أول سفير فى الاسلام « مصعب بن عمير . . . »

فلما استدار العام وأقبل الموسم ، وافى ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتان ، واجتمع بهم رسول الله فى هزيع من الليل ، فبايعوا البيعة الكبرى .

٤
الهجرة

فلما عادوا إلى يثرب أذن الرسول لأصحابه بالهجرة فكان بين أولهم وآخرهم أكثر من عام ، فجعلوا يترافقون بالمال والظهر ، وكان من أولهم هجره أبو مسلمة عبد الله بن عبد الله ، وعمار بن ياسر ، وسعد بن أبى وقاص ، وابن مسعود وبلال وآخرهم هجرة رسول الله وأبو بكر وعلى بن أبى طالب .

وقد ظل رسول الله فى مكة حتى هاجر أتباعه .

وأذن الله لرسوله فى الهجرة بعد أن تجمعت قريش حول داره تحاول أن تقتله (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)

ـ خرج رسول فألقى عليهم التراب ومضى إلى بيت صاحبه « الصديق » فركبا إلى غار ثور ، فاختبئا فيه ثلاثة أيام، وقريش تنهب الأرض نهبا ، وتتبع الآثار ، وتعرض العروض ، وتصل إلى باب الغار ، ثم ترتد عنه ، وقد غشاه العنكبوت وباض على بابه الحمام .

ـ (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا) .

-وفى يوم الإثنين الأغر ، الثانى عشر من ربيع الأنور ، على رأس ثلاث عشر سنة من البعثة ، نزل إلى جانب الحرة ، فمضى فى طريقه ومعه صاحبه حتى أشرف على يثرب

وكانت طوائف المؤمنين من المهاجرين والأنصار تخرج كل يوم إلى ظاهر المدينة تنتظر الرسول ، فاذا هى ذات يوم ، وقد صاح اليهودى مناديا : يابنى قيله « هذا جدكم الذى تنتظرون قد جاء ، ومضى رسول الله فى طريقه . كل قبيلة تحاول أن تعرض عليه نفسها ليأوى إليها ، وتنادى هلم إلى المنعة والقوة والثروة يارسول الله . فيقول لهم خيرا . وناقته ماضية فى طريقها ، وقد أرخى زمامها ، فلم تزل سائره به حتى بركت بمربد بنى سهل وسهيل من بنى النجار . وفى مبركها بنى النبى مسجده ، وعمل فيه بيديه ، ثم بنى مساكنه إلى جواره . وأقام رسول الله ببيت أبى أيوب الأنصارى سبعة أشهر .

(فى المدينة) وبدأ عمله فى المدينة بكتابه أمان وموادعه « لليهود » من أعظم وثائق التاريخ الإسلامى وسنعرض له فى موضعه من البحث .

وآخى بين تسعين رجلا من المهاجرين والأنصار ، وظل الإخاء مقدما على القرابة ، حتى اشتد ساعد الدعوة فنسخ التوارث بالمؤاخاة بعد « بدر »

٥

وباستقرار رسول الله بالمدينة ، انتقل الاســـلام إلى مرحلته الطبيعية الثالثة ، مرحلة « الدولة » القائمة على النظام القرآنى ، ومن ثم تمت صلاة المقيم أربعا بعد ما كانت ركعتين ، وفرضت الزكاة ، وأذن الله بالقتال « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » وقامت الدولة الاسـلامية الصغيرة على قواعد العدالة والأخاء ، وكفالة الدم والمال والعرض

ثم أذن للصلاة ، وأسلم عبد الله بن سلام من أكبر أحبار اليهود ، وحاول اليهود الوقيعة بين الأوس والخزرج ، بعد أن جمعهما الله على الاسلام ، وصرف الله الكعبة إلى مكة بعد أن صلى المسلمون إلى بيت المقدس سبعة عشر شهرا بعد الهجرة .

وبدأت عصبة المسلمين تواجه صراعا جديدا بينها وبين خصومها ، هو من نوع آخر يختلف عما لقى المسلمون بمكة . فقد كان فى المدينة اليهود ، وهم قوم جدلون خصمون ، وقد طال جدلهم ، وطال بهم التآمر . بعد أن أظهر الله أمر رسوله

السرايا

(السرايا) ومنذ فرض الله القتال ، والسرايا الاسلامية لا تنقطع ، وقدبدأها بعث رسول الله لعمه حمزة بن عبد المطلب فى ثلاثمائة ، إلى ناحية (العيص) على رأس ثمانية أشهر من الهجرة ، وكان أول من رمى بسهم فى الاسلام ، سعد بن أبى وقاص ، فى سرية عبيد الله بن الحارث ، وأخذ المسلمون يترصدون عير قريش ، وتوالت سراياهم ، بل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج بنفسه على رأس اثنى عشر شهراً من مقدمة المدينة ، وسار إلى الأبواء ثم خرج بعد ذلك مرتين أو ثلاثا

٦

بدر

وقد كانت هذه السرايا تدريباً وإعداداً للجيش الاسلامى وترصداً لعير قريش ، فلما خرج أبو سفيان بقافلته الضخمة ترقبه المسلمون حتى إذا أقبل عائدا من الشام ، ندب رسول الله المسلمين لها ، وقال : هذه عير قريش فاخرجوا إليها ، لعل الله أن ينفلكموها . إن الله وعدنى إحدى الطائفتين : العير أو النفير

فخرج رسول الله لثمان خلون من رمضان من السنة الثانية من الهجرة بعد أن استعمل على المدينة أبا لبابه ، وجعل عمرو بن أم مكتوم على الصلاة ، واعتقب كل ثلاثة من المسلمين بعيرا ، وكان رفيقا رسول الله على بن أبى طالب ، ومرثد بن أبى مرثد الغنوى ، وقد استأذنا رسول الله فى أن يظل راكبا بعد أن قطع مرحلته، فأبى عليهما وقال : ما أنتما بأقوى منى ، وما أنا بأقل حاجة إلى الأجر منكما

ـ وأخذ رسول الله يثبت عيونه فى حصافة القائد الخبير ، ويتنطس الأخبار ، فلما وصل المسلمون أدنى ماء بدر تبينوا أن أبا سفيان اتخذ طريقاً مغايرا ، فقد حاذى سيف البحر ومضى بالعير فى الوقت الذى خرجت فيه قريش تدفع عن قافلتها عدوان المسلمين . ومن ثم تغير وجه الأمر ، من العير والغنيمة ، إلى ذات الشوكة ، والحرب .

ـ واستشار رسول الله صحابته فتكلموا واحدا بعد واحد ، ورسول الله ما يزال يقول عبارته الخالدة « أشيروا على أيها

الناس ، ومن ثم وثب « سعد بن معاذ » وقد أراده رسول الله ، وأحب أن يعرف رأيه ورأى أصحابه ، من الأنصار الذين بايعوا يوم العقبة على أن يمنعوا رسول الله فى حدود مدينتهم ، ولم يتعدوها بعد ، فقال كلاماً طويلا ، هو مفصل فى مكانة من « مغازى رسول الله » خلاصته القبول والتأييد والنصرة ، ومن ثم نزل المسلمون بدرا وأفطر الصائمون ، ونشبت الحرب ، وأيد الله رسوله بالآيات والملائكة والمطر ، والتقى الجمعان صبيحة الجمعة لسبعة عشر خلت من رمضان وقد أمد الله المسلمين بالنصر ، وقتل (بلال) معذبه وواضع الحجر على صدره (أمية بن خلف) . وأخذ رسول الله حفنة من الحصباء ، فرمى بها قريش ، وهو يقول « شاهت الوجوه » ونصر الله المسلمين نصرا مؤزرا . وأذل الله ببدر رقاب المشركين .

(الأسرى) ورأى رسول الله فى الأسرى رأيا ، وأنزل الله أمره « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم » .

وقد ألقى نصر الله للمسلمين فى بدر ، الفزع والرعب فى قلوب القبائل والبطون . ومن ثم بدأ اليهود يأتمرون فأخذهم رسول الله بالقوة بعد إن لم تفلح المهادنة ، فقتل المسلمون منهم : أبو عفك وعصماء ، وكعب بن الأشرف ، وقد كانوا يعيبون الإسلام ، ويؤذون النبى ؛ ثم حاصر المسلمون (بنى قينقاع) فأجلوهم عن المدينة ،

٧

أُحـد

ثم بدأت قريش تتجهز للثأر من بدر ، وتتهيء لقتال المسلمين ، وقد سارت جموعهم إلى المدينة وبلغ خبرها رسول الله قبل أن تتحرك ، فشاور أصحابه ، فقال أغلبهم بالتحصن بالمدينة العذراء التي لم تفض على أهلها قط ، ولكن فريقاً ممن لم يشهدوا بدرا أحبوا أن يخرجوا إلى العدو حتى لا يظن أنهم كرهوا الخروج أو جبنوا عنه .

— وخرج رسول الله وقد لبس درعه وتقلد سيفه ، وقد تراجع المسلمون إلى الرأى الأول فى البقاء فى المدينة فقال : قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، وما ينبغى لنبى إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . انظروا ما آمركم به فاتبعوه ، والنصر لكم ما صبرتم »

— وخرج المسلمون إلى (أحد) وقد انفصلت كتيبة ابن سلول فقفلت راجة منخذلة ، وكان ذلك من الخير : فلا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك . والتقى الجمعان بعد أن وضع رسول الله الرماه فوق الجبل ، وأمرهم ألا يبرحوا أماكنهم ، انتصر المسلمون أو هزموا . وقاتل المسلمون مستبسلين ، حتى

إذ ظهرت علائم النصر ، وبدأ المسلمون يغنمون ، عندئذ ترك الرماة أماكنهم ، واهتبلها « خالد » فرصة فأغاز على الباقين منهم فقتلهم ، ودار برجاله وراء جيش المسلمين ، ومن ثم دارت الدائرة على المسلمين .

— وتصايح القوم أن رسول الله قد قتل ، فى الوقت الذى كان رسول الله محاطاً بالمسلمين . وقريش تقذفه وتقذف المسلمين بالحجارة ، التى أصابت رباعيته وشجت وجهه ودخلت حلقتا المغفر فى وجنتيه ، وسقطت ثنياته ، واستمات المسلمون فى الدفاع عن رسول الله وترس سعد وأبو دجانة دون رسول الله ، وبقى رسول الله فى هدوء واطمئنان يستقبل هذا الظرف العصيب ، دون أن تفارقه ثقته بنصر الله طرفة عين ولا أقل من ذلك .

— واستشهد الكثير من المسلمين بعد البلاء الصادق والجهاد الطويل ، ومثلت قريش بالمسلمين ، وكان أفظعها تمثيلا حمزة ، وعاد المسلمون إلى المدينة ، ولكنهم لم يلبثوا أن خرجوا فى الغد إلى (حمراء الأسد) وقد أذن رسول الله ألا يخرج إليها إلا من حضر (أحدا) .

— وأقام رسول وأصحابه بها ثلاثة أيام يوقدون النار ويتربصون بقريش أن تعود ، ولكن قريشاً كرهت العود ، وقفلت راجعة إلى مكة ، ثم قفل بعدها رسول الله وأصحابه إلى المدينة وقد استرد المسلمون هيبتهم بهذه المناورة العسكرية البارعة

١٨

ولم ينقطع بين غزوتى (أحد ـ الأحزاب) سيل السرايا ، وقد كان أبلغ أحداث هذه الفترة ، حادثى الاغتيال فى الرجيع وبئر معونة ، وقصتهما متشابهة ، فقد جاء أقوام يقولون أن فينا إسلاما فابعث معنا نفرا من أصحابك يعلمونا شرائعه ، ويقرؤنا القرآن ، فأرسل مع أهل نجد سبعين رجلا ضربت أعناقهم ، ولم ينج منهم إلا عمرو بن أمية الذى حمل الخبر إلى رسول الله . وأرسل مع الآخرين عشرة ، قتل منهم ثمانية ، منهم خبيبا وزيدا ولهما قصة تراها فى مكانها فى فصل « الجندية فى الدعوة الإسلامية »

ــ وفيما يحدث هذا كله ، يتربص اليهود بالمسلمين الدوائر ويظهرون البشر والرضى ، لما يصيبهم من أحداث ، ويأتمرون بهم ، بل لقد ائتمروا فعلا برسول الله عند ما زار محله بنى النضير قريباً من قباء .

وقد رجع رسول الله إلى المدينة ، وذكر لأصحابه أمر يهود ، وبعث توا محمد بن سلمة إليهم يقول لهم : إن رسول الله أرسلنى إليكم أن أخرجوا من بلادى لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى ، ولقد أجلتكم عشراً ، فمن رئى بعد

ذلك ضربت عنقه ، فلما أخذت يهود تتأهب للرحيل حرضهم أبي بن سلول على البقاء .

— ولم يمهلهم الرسول حتى يدبروا أمرهم ، بل سار إليهم بعد العشرة ، فقاتلهم عشرين ليلة ، فخربوا بيوتهم بأيديهم ، وأمر رسول الله أن تقطع نخيل يهود وتحرق ، وجبن ابن أبي فلم يوف لهم ما وعد من العون ، فسألوا رسول الله أن يؤمنهم حتى يخرجوا فأمنهم ، فخرجوا إلى اذرعات بالشام ، وتركوا وراءهم كل ما يملكون غنما للمسلمين . وبذلك أجلى رسول الله اليهود عن المدينة فأطمأنت وضربت الذلة على المنافقين الذين كانوا يجدون منهم عونا وسندا .

— واستدار العام وذكر رسول الله كلمة أبي سفيان في أحد (يوم بيوم بدر وموعدنا العام المقبل) فخرج رسول الله وخرج المسلمون إلى بدر ، وخرجت قريش ثم عادت بعد مسيرة يومين بعد أن أذن فيهم أبا سفيان بأنه راجع فليرجعوا . .

— استقر أمر رسول الله وأمر دعوته بالمدينة ، ولم يكن من اليسير على قريش أن تترك المسلمين دون أن تدبر لهم أمراً أو تكيد لهم كيداً ، ورسول الله بالمدينة حذر يقظ ، يبث عيونه في أطراف شبه الجزيرة تنقل إليه من أمرها كل صغير وكبير . .

٩
الأحزاب

وجاء الوقت الذى نظرت فيـــه قريش وقبائل شبه الجزيرة إلى رسول الله ودعوته نظرة الخصومة ، فقد كانت الدعوة الإسلامية تلاقى فى ذلك الوقت خصومة اليهود وخصومة قريش ، وخصومة قبائل غطفان وهذيل ، فما أن سعت بين قريش وبين هذه القبائل تؤلبها على محمد ، حتى استمعت وتعاهـــدت واستجابت . وخرجت غطفان وبنى مره وفزارة وأشجع وسليم ، وعلى رأسها أبى سفيان فى أربعة آلاف .

ـــثم لقى رسول الله هذه الجموع الضخمة الحاشدة المتمنعة فى أسلحتها وعتادها ؟ . لاشىء ! إلا أنه حفر الخندق مع أصحابه ، وعمل فيه بيديه ، فكان يضرب بيده ، ويحمل التراب ، ويحدث أصحابه فى يسر وابتاس ويهون عليهم الأمر .

فلما صادفت أصحابه الصخرة الضخمة العاتية واستعصت عليهم تناول رسول الله معوله وضربها فى قوة ثلاث مرات تفتت على أثرها ، وبشر أصحابه بفتح فارس واليمن والشام ، وحدثهم عن قصور القياصرة والأكاسرة وصنعاء ، وأبلغهم وعـــد ربهم بامتلاك هذه الأقطار .

ـــ وهكذا ، ظهر وميض الأمل والبشرى فى أشد ساعات

العسرة والقنوط ، فما أن انتهى المسلمون من حفر الخندق حتى برزت جموع الأحزاب تغير على المدينة « وإذا جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » .

أما المؤمنون فقد قالوا حين رأو الأحزاب : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما .

— وارتدت هذه الجموع عن الخندق محنقة مغيظة ، خاسئة حائرة ، يائسة ، واستمر الحصار شهراً ، قاسى فيه المسلمون صنوفا من العنت والحرمان ، وترددت قريش فى البقاء ، وخذلتها عوامل الشتاء وحطمت عزمتها مناورة نعيم بن مسعود الذى جاء رسول الله مسلما مستخفيا فما زاد رسول الله عن أن قال له : خذل عنا ما استطعت ! فان الحرب خدعة .

— ثم جاءت الريح العاتية والعاصفة الصرصر ، فاقتلعت الخيام وكفأت القدور ، وملأت نفوس المشركين واليهود رعبا وفزعا ، فتطيروا ودب فى نفوسهم اليأس ، وقفلوا راجعين .

(بنى قريظة) وأصبح المسلمون ، وليس هناك إلا بقايا من مخلفات الجيوش المهزومة ، ولم ينتظر رسول الله حتى يؤذن العصر ، ونادى منادية : من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر

إلا بنى قريظة ، فحاصروا حصون اليهود ، وامتد الحصار أكثر من عشرين ليلة ، حتى جاع من فيها ، وعرضت قريظة الخروج ، فأبى رسول الله ذلك عليها . وقبلوا أخيرا تحكيم سعد بن معاذ ، وقبل رسول الله ، وأخذت المواثيق على إنفاذ حكمه فحكم بأن تقتل المقاتلة وتقسم الأموال وتسبى الذرية والنساء ، فحفرت الخنادق وجيء باليهود فضربت أعناقهم فيها ، وقسمت أموالهم وسباياهم ، وزاد بذلك أمر المسلمين استقراراً .

١٠

— ومضى رسول الله فى طريقه ، ينظم الجماعة ، ويسوى الصف ، ويتعرف وجوه القوة والضعف فيها بعد ذلك الإمتحان الرائع الذى امتحن به المسلمون فى (غزوة الأحزاب) وبعد أن تجمعت شبة الجزيرة جميعا على هذه الدعوة فى أعابها الغضه ، وفى إدوار نضوجها الأولى تحاول أن تمزقها وتذروها فى الرياح لولا تأييد الله ونصره .

(سمن كلبك يأكلك) وخرج رسول الله إلى غزوة بنى المصطلق التى أعقبتها فتنة عبد الله ابن أبى فى أمر المسلمين حين قال لجلسائه : (لقد تكاثرنا المهاجرون فى ديارنا والله ما أمرنا وإياهم إلا كما قال الأول (سمن كلبك يأكلك) . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأزل)

— وكاد أمر هذه الفتنة أن يتسع لولا حكمة رسول الله ﷺ الذى رد رأى عمر فى قتل ابن أبى وقال له : كيف يا عمر إذا تحدث الناس وقالو : إن محمداً يقتل أصحابه . وأذن للرحيل فى ساعة لم يكن يرتحل المسلمون فيها ، ثم ما كان من إسراع أبى بن سلول ينفى لرسول الله ما أذيع عنه ، ثم نزول القرآن يؤيد ما أنكر ابن أبى من قولته الظالمة !

— وتتابعت الحلقات فأذاع المنافقون فى أعقاب العودة من بنى المصطلق حادث الأفك الذى استقبله رسول الله ، كما استقبل كل الأزمات والحادثات والمؤامرات من قبل فى رضا واطمئنان إلى أمر الله ، وفى حكمه القائد الخبير ، حتى نزل الوحى ببراءة عائشة وحكم الله فى رمى المحصنات .

١١
الحديبية

— وهكذا تضطرد حياة رسول الله من حلقه إلى حلقه ، كلها النصر للدعوة ، والتجمع حولها . وكلها إلا دالة من الخصوم والمنافقين حتى مضت على الهجرة ست سنوات استقر فيها أمر رسول الله بالمدينة بعد أن قضى على شرذمة اليهود الخبثاء الماكرين الذين كانوا أكبر المتآمرين على هذا الدين منذ بزغ فجره إلى اليوم

— وتتابعت الحوادث . فأمر رسول الله المسلمين بالتأهب للحج . مع ما في نفوس المهاجرين من حنين إلى مكة ، الموطن الأول ، وما في نفوس الأنصار من شوق إلى بيت الله الحرام .

— وأذن رسول الله بالحج ، وأرسل إلى القبائل يدعوها للاشتراك معه ، وساق المسلمون الهدى أمامهم علامة السلم والحج ، لا الحرب والقتال . وسار ألف وأربعمائة من أتباع رسول الله إلى مكة ملبين بالعمرة ، وعلمت قريش خبر رسول الله فخرجت تلبس جلود النمور ، وتنزل بذى طوى ، وسمع رسول الله تأهبهم لمنعه من دخول مكة ، فقال : « ياويح قريش ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فان هم أصابوني كان ذلك الذى أرادوا ، وأن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله

به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة (صفحة العنق) !

— وحرص رسول الله على السلم عند ما برزت جموعهم تواجه جموعه ، ونادى مناديه : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم ، فلما تقدم الدليل سار المسلمون ورائه حتى وصلوا ثنية المزار ، فلما بلغ المسلمون الحديبة ، بركت ناقه رسول الله (القصواء) . وقال الرسول : إنما حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعونى قريش إلى خطة يسألونى فيهـــا صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

— ونزل ونزل الناس ، ودارت الرسل بين معسكر المسلمين وبين قريش على أن الرسول وأصحابه إنما جاءوا زائرين لبيت الله العتيق وأرسلت قريش (الحليس) إلى معسكر المسلمين فأمر رسول الله أن يطلق الهدى أمامه ، ورآه الحليس وقد امتلأ به سهل الوادى تآكلت أوباره فأثر فى نفسه مرآه ، حتى رده إلى قريش دون أن يلقى رسول الله ، ليحدثهم من أمر محمـــد وصدق نيته فى زيارة البيت .

— ثم بعثوا (عروة بن مسعود) الذى حدث رسول الله فى جفاف وغلاظة ، وعرف منه أنه إنما أقبل مع أصحابه معظمين للبيت ومعتمرين وعاد إلى قريش مشدودها مأخوذاً ، وهو يقول : إنى جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر والنجاشى ، ووالله مارأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ، لا يتوضأ إلا ابتدروا

وضوءه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه ، وأنهم لن يسلموه لشيء أبداً ، فروا رايكم »

— وخرج بعض سفهاء قريش ليلة فليلة يرجون معسكر النبي بالحجارة بغية أن يصيبوه ، فلما اقتيدوا إليه عفا عنهم وأطلق سراحهم . وأرسل رسول الله عثمان بن عفان فطال احتجابه ، وأشيعت الشائعات عن مقتله ، وغدر قريش به ، فنادى رسول الله أصحابه وقال : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ووقف تحت الشجرة وبايعهم ، وضرب بيده على أيديهم وقال : هذه بيعة عثمان ، وأيد الحق تبارك وتعالى هذه البيعة بالآيات الكريمات (لقدرضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافي قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا)

— ثم ما لبث عثمان أن عاد إلى رسول الله واتفق المسلمون مع قريش على التفاهم وندبت لذلك سهيل بن عمرو الذى رغب إلى رسول الله في العودة عامه هذا على أن يردمكة عام قابل فتخلى قريش له حرمها ثلاثة أيام ، ليس معهم إلا السيوف في القراب ! ودارت « المحادثات » بين رسول الله وبين سهيل طويلا ، وضاق المسلمون لتشدد سهيل مع تساهل النبي . وكادوا يفتنون في دينهم من قبول رسول الله لعروض قريش ، وانزعج عمر بن الخطاب لذلك أشد الانزعاج حتى حادث أبا بكر وسائل رسول الله نفسه في الأمر وهو يقول أولسنا بالمسلمين فعلام نعط الدية عن ديننا ورسول

الله يقول له أنا عبدالله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى » وكتب العهد وعارض سهيل فى عبارتى بسم الله الرحمن الرحيم ، ومحمد رسول الله وأقره الرسول عليهما جميعا وقبل رسول الله أن يرد إلى قريش من يأتيه منها ولا ترد قريش من يأتيها من قبله

— وما كاد العهد يوقع بينهما حتى قدم أبو جندل بن سهيل بن عمرو مقيداً بالسلاسل يصرخ ويطالب المسلمين بأن يضموه إليهم خوف أن يفتنه المشركون عن دينه ورسول الله يجيبه فى بساطة وهدوء : يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجا : إنا عقدنا بيننا بين والقوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا : عهد الله وإنا لا نقدر » وحلق رسول الله ونحر وكذلك فعل المسلمون .

١٢

التوسيد والتركيز

ـــ وعاد المسلمون وهم ضائقون بأمر معاهدة الحديبية لولا ثقتهم فى رسول الله ، ومايهون عليهم أمرها إلا الفناء فى القيادة والتسليم لها فى المعسر والمكره سواء المنشط والميسر ، وأنهم لفى الطريق وعمر يحاذى رسول الله بركابه يحاوره فى أمر الحديبية ثم يخشى من أمره فيرجع ، وإذا بالوحى ينزل على النبى بسورة الفتح « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » فيسر المسلمون وتهدأ نفوسهم وتستريح أفئدتهم ، ثم يرون من بعد ، أن أمر الحديبية كان غاية فى بعد النظر والدهاء والحكمة التى تتأتى للقيادة فى كثير من الأحيان ويعجز عنها الجنود !

ـــ إنها هدنة السنوات العشر تهيء فيها الدولة الإسلامية الناشئة أمرها وتثبت قواعدها ، وإنها الاطمئنان من الجنوب ، ثم هو الاعتراف بالمسلمين وبدواتهم، ثم هو التقدير للاسلام، ويسرى أمر قريش وقد عرفت قدر محمد فى شبه الجزيرة مسرى النار فى الهشيم فيوقظ القلوب الغافية ويرد النفوس المضطربة

ـــ ثم يفد أبو بصير من بعد إلى المدينة مسلما فيرده رسول الله وفاء بعهده ويقول له إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت

ولايصح لنا فى ديننا الغدر وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، فانطلق إلى قومك، فلما مضى قال رسول الله : ويح أمه مسعر حرب لو كان معه رجال : وتلك خبرة القائد بالنفوس ومعرفته للرجال . وقد انطلق أبو بصير فساحل البحر ونزل العيص وتسامع به الذين أحتجزتهم المعاهدة فى مكة فاعتصبوا على ساحل البحر وقطعوا الطريق على القوافل والمسافرين ، وقتلوا كل من مسافر ونهبوا كل قافلة حتى بعثت قريش إلى رسول الله تسأله بالإرحام إنه يقبل هؤلاء ويسقط هذا الشرط ، وقد كان . .

— وفى هذا العام بين الحديبية وعمره القضاء ، أنفذ رسول الله أمرين بالغين فى الأهمية للدعوة الاسلامية فقد هاجم يهود خيبر وحاصرهم أعنف الحصار ، وطال أمره واستعصت الحصون على المسلمين ثم أمدهم إيمانهم بالقوة ففتحوها واحداً واحداً واستقتل اليهود فى الدفاع فلم يغنهم ذلك شيئا وانهار سلطانهم وأذعنوا لأمر المسلمين وهاجر أغلبهم وبقى بعضهم على الأرض حتى لايشغل المسلمون بأمرها عن جهادهم فى سبيل الله وبذلك قضى على سلطان اليهود فى شبه جزيرة العرب قضاءاً أخيراً

— ثم أخذ رسول الله يرسل الرسل إلى الملوك يعلن إليهم دعوة ربه فأرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والحارثين الغسانى

بالحيرة والحيرى باليمن وإلى نجاشى الحبشة يدعوهم إلى الإسلام

وفى ذلك من الثقة ومن القوة النفسية مافيه وقد أجاب بعضهم وامتنع آخرون

(عمرة القضاء) واستدار العام ومضى المسلمون إلى مكة يشارفون بيت الله الحرام ويطوفون به وينحرون الهدى ويقضون الفريضة الكبرى . ثم يعودون إلى المدينة وقد أسلم خالد بن الوليد الذى قال « لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر وإن كلامه من كلام رب العالمين لحق على كل ذى لب أن يتبعه »

١٣

الفتح

ومضى رسول الله فى طريقه ، وقد استقام أمر الدعوة واستقر أمر الدولة واتجه بصره صلى الله عليه وسلم إلى الشام فأرسل إليها ثلاثة آلاف من المسلمين جعل على رأسهم أمير وخليفتين ، جعل على الجيش زيد فإن أصيب فجعفر ابن أبى طالب فإن أصيب فعبد الله بن رواحه وقد قتل ثلاثتهم فى المعركة وتسلم الراية خالد بن الوليد الذى داور بالمسلمين فى تدبير حربى منظم حتى رجع بأصحابه دون أن يعرضهم لخطر ذلك العدد الضخم من العدو، وما لبثت قريش بعد ذلك أن نقضت صلح الحديبية إذ حاولت بنى بكر حليفة قريش – فى الصلح – أن تنال من خزاعه حليفة المسلمين

أذن رسول الله فى القبائل بالتأهب دون أن تعرف القبائل وجهتها ، وأوفدت قريش أبا سفيان إلى المدينة ليزيد فى المدة بعد أن يثبت العهد فلم يجد له إلى رسول الله منفذاً أو نصيراً حتى أن أبنته زوج رسول الله خذلته وطوت فراش رسول الله عنه وقالت له مقالتها . .

وتجهز المسلمون بأمر القيادة ، دون أن يسألوا أو يعرفوا إلى أين ؟ وضبط (على) كتاب حاطب بن أبى بلتعه إلى أهل مكة وعفا الرسول عنه بعد أن استأذنه عمر فى قتله وقال له : مايدريك ياعمر لعل الله أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم

ـــ وزحف الجيش وهو لا يعرف وجهته ، بل يمضى فى طريقه بأمر قائده وقد اشتركت فيه قبائل سليم ومزينة وغطفان فامتلأ بهم الوادى وعلى رأس هذه الكتائب المؤمنة الصادقة رسول الله يبغى فتح مكة ويسأل ربه أن يحقق له أمره ذاك دون أن يريق قطرة دم فما كان يلجأ إليها إلا أن يلجأه إليها خصومه الآثمين . . . وبلغ مر الظهران فنزل بها وأوقد النار وضربت خيام ألف فارس من المسلمين فغمرت الوادى فأمسى مهيباً رهيباً . . .

ـــ وخرج زعيم قريش « أبا سفيان » يلتمس خزاعه التى خمشتها الحرب فلما بلغ المعسكر عرف أنه رسول الله والمسلمين ، وحاول عمر أن يقتله لولا أن أمنه الرسول وأذن للعباس أن يذهب به إلى رحلة حتى الصباح واستعصت شهادة الإسلام على أبا سفيان فما نطق بها إلا بعد أن وقف يستعرض هذه الكتائب والنجائب وقد أرهبه أمرها وهزه من الأعماق حتى سأل العباس فى لهف ودهشة « لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما » !

ـــ وقد استجاب رسول الله لناحية الفخر والزعامة فى نفسه فاعلن أن من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، وعاد أبو سفيان إلى مكة يحدث أهلها بما لا قبل لهم به .

ـــ ودخل رسول الله مكة دون أن تلقى جيوشه بمقاومة تذكر بعد أن انحنى لربه شاكراً أن أفتح عليه مكة دون أن يراق فيها دم وآوى إلى خيمته التى ضربت له قباله جبل هند وذكر رسول الله وذكر المسلمون كيف أخرجوا مهاجرين بعد أن

اضطهدهم أهل مكة وثبت لهم أن التربة المكية لم تعد تصلح لما صلحت له تربة يثرب من بعد .

— وخرج رسول الله فامتطى ناقته القصواء وسار بها حتى بلغ الكعبة فطاف بالبيت سبعا ، ثم وقف على باب الكعبة ووقفت قريش تسمع ماذا سيكون من أمرها بين يدى رسول الله وهى التى أذته وأخرجته ولم تدع مكيدة فى سبيل تحطيم هذه الدعوة إلا اقترفتها ثلاثة عشر عاما كاملة ثم كيف مكرت بعد ذلك بالمسلمين فى أحد والخندق ولكن رسول الله كان عفوا صفوحا

قال يامعشر قريش : ماترون أنى فاعل بكم

قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم

قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء

وهكذا صدر العفو العام من القيادة الإسلامية بعد أن أمكن الله لها من العدو وحطم رسول الله الأصنام وأزال الصور من حول الكعبة وعرف فى الأنصار مخافة فقال لهم : المحيا محياكم والممات مماتكم ، وأذن بلال فوق الكعبة وصلى الناس خلف الرسول وقال قولتـــه الخالدة « يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة لايحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك منها دما أو يعضد منها شجراً ، ولم تحلل لأحد من قبلى ولاتحلل لأحد يكون بعدى . ولم يحل لى إلا هذه الساعة ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب »

١٤

يوم حنين

— وأقام رسل الله بمكة . وقد أرسل السرايا إلى القبائل تحطم الأصنام وتهدم الأوثان ، أرسـل خالداً وأرسل عليا

وعلم رسول الله حين مقامه بمكة أن حنين تستعد لغزو مكة فبادرهم فى إثنى عشر ألفا من المسلمين ، تحركوا زاحفين إلى حنين وقد ملأهم الإعجاب بالكثرة والعدد ، فوصلوا مع المساء فنزلو على أبوابها حتى أصبح الصباح وما لبثوا أن انحدروا حتى واجهتهم عاصفة من النبال فى عماية الصبح فاختلط أمرهم وانفرجت صفوفهم ، وانقلبوا فارن ورسول الله فى مؤخرة الجيش ، وقد رأى هذه الجموع وقد أخذت تفر وتنحدر من حوله يمينا وشمالا ، وهو واقف على فرسه ، ثابت كالطود لا يريم ، يردد فى رباطة جأش قولته البليغة

« أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » وأدنى إليه العباس وأخذ يلقى إليه أن ينادى: يامعشر الأنصار الذين أووا ونصروا، يامعشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة . أن محمداً حى فهلموا . ورددت جنبات صوته أنحاء الوادى وأجاب المسلمون عن كل جانب : لبيك لبيك

— سمع المسلمون اسم « البيعة » فعادوا فى قوة واستبسال ، ونزل بعضهم عن افراسهم وشدوا على العدو فى عنف وقوة واستماتوا وقد اشتدعودهم فلم يستطع خصمهم أن يثبت على المقاومة طويلا

ونظر رسول الله فرأى رجاله يقبضون على ناصية الموقف فنادى : الآن حمى الوطيس . إن الله لايخلف رسوله وعده .

— « ولقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين »

واستشهد عدد ضخم من المسلمين فى هذه الغزاه ، وغنم المسلمون وأسروا أكثر مما غنمو فى أى معركة من قبل .

— ثم زحف رسول الله وأصحابه إلى الطائف يحاصرن ثقيفا ويضيقون عليها الخناق ، ورمى المسلمون الطائف بالمنجنيق ، فلما امتنعت عن التسليم هدد رسول الله بقطع كروم الطائف وحرقها فلما أجمع المسلمون أمرهم تراجعت ثقيف و بعثت إلى رسول الله تسأله بالرحم أن يمهلهم فرجع رسول الله بجيشه وقد أزمع أن يعود إلى الطائف ما انتهت الأشهر الحرم .

— ووزع رسول الله الغنائم بعد أن احتجز خمس الله ورسوله وما أن انتهى منها حتى جاءه وفد هوازن مسلمين يسألون رسول الله أموالهم ونساءهم وقالوا : يارسول الله

إن فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللواتى كن يكفلنك

فاستمع إليهم رسول الله وسألهم : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالو يارسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا بل ترد إلينا نساءنا وأبنائنافقال: أما ماكان لى ولبنى عبدالمطلب فهو لكم وإذا ما أنا صليت الظهر فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين بالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم وأسأل لكم فلما انفتل من صلاته قالوا ، فرد عليهم بمقالته برد ماله وما لبنى عبد المطلب ، فقالت المهاجرون ماكان لنا فهو لرسول الله وقالت الأنصار : ماكان لنا فهو لرسول الله

ووقف رسول الله يقسم الفىء والمسلمون يتصايحون حوله وقد أخذوا ردائه فصاح فيهم « ردوا إلى ردائى أيها الناس فوالله لو أن لى بعدد شجر تهامه نعما لقسمته عليكم ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جبانا ولا كذابا » .

— أخذ رسول الله بعد ذلك يوزع الفىء ويعطى المؤلفة قلوبهم فى سخاء وكرم حتى بلغ عطاء أباسفيان ومعاوية مائتى من الإبل وأعطى عباس بن مرداس فاستقل العطاء فقال إذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه . . .

وتحدثت الأنصار عن عطاء رسول الله وقالوا : لقى والله رسول الله قومه ، وبلغت مقالتهم رسول الله فنادى سعد

ابن عباده وقال ماقاله بلغنى عنكم ياسعد . اجمع لى قومك فى الحظيرة

فلما اجتمعوا سعى رسول الله إليهم وخاطبهم :

يا معشر الأنصار ، ما قاله بلغنى عنكم وجده وجدتموها فى أنفسكم، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم . أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم أتينا مكذبا فصدقناك ومخذولا فنصرناك وطريداً فآويناك وعائلا فآسيناك ، أوجدتم يامعشر الانصار من لعاعه من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاه والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ، فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرؤا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

فما بلغ رسول الله من قوله هذا حتى فاضت العيون واخضلت اللحى بالدمع الهتون .

وقال القوم : رضينا برسول الله قسما وحظا .

— وذلك موقف بارع من مواقف القيادة الحكيمة ليس هنا موضع التعليق عليه ولا تفصيله ، ولا الحديث عنه ولا عن غيره من المواقف فانما ذلك سرد تاريخى سريع ، نقدمه بين يدى البحث المستفيض فى هذه المواقف الكريمة وما وراءها من هدى وقوة ومثل . . .

١٥

غزوة العسرة

— تهيء بعد ذلك رسول الله لغزو الروم إذ نما إليه تفكيرها فى غزو حدود العرب فأخذ رسول الله يستعد لها وهو العليم ببعد الشقة وشدة القيظ وجدب الصحراء وقلة الزاد وقد دعى رسول الله المؤمنين فلبوا ندائه وجادوا بانفسهم وبما لديهم ولم يصرفهم عن الغزاة شدة قيظ ولا صحراء

— وتخلف عن رسول الله فريق من المنافقين ، ممن بعدت عليهم الشقة ؛ وممن قالوا لا تنفروا فى الحر وممن قالوا ائذن لى ولا تفتنى .

— وانتهز بعض المنافقين الفرصة ليخذلوا المسلمين عن الغزاة ويحرضوهم على التخلف ، وعلم رسول الله أمر ندوة سويلم اليهودى وأمر من يجتمعون فيها فارسل إليهم طلحة ابن عبيد الله فحرق عليهم دارهم .

— وانفق عثمان فى تجهيز جيش العسرة ألف دينار وأنفق غيره من المسلمين قدر ما استطاعوا ، وفى الوقت الذى يجىء فيه المعذرون ليستأذنوا رسول الله فى التخلف يجىء

الفقراء يريدون أن يحملهم النبي فيرد بعضهم وهو أسيف حزين ويقول لهم : لا أجد ما أحملكم عليه فيتولوا « وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون » .

— وزحف جيش العسرة فى ثلاثين ألف من المسلمين .

وسار الجيش فى رعاية الله قاصداً تبوك فما أن بلغها حتى كان الروم قد انسحبوا عند ما علموا بمسيره ، فأمن الحدود وعاهد أهلها ، وعاد وقد تكشف له فى حال عودته أمر المنافقين فى آيات من القرآن وصف فيها الحق تبارك وتعالى لرسوله أصنافهم وأعمالهم فكان عليهم شديداً بعد عودته ، حتى أنه أحرق مسجد الضرار بعد أن استمهل أصحابه الذين دعوه ليصلى به قبل ظعنه إلى تبوك .

١٦

الوفود وحجة الوداع

— وظل رسول الله بعد ذلك يستقبل الوفود تأتى مبايعة إياه من أطراف الجزيرة حتى سمى عامها ذاك بعام الوفود ، وحج أبا بكر بالناس ومضى فى عقبه على موفداً من رسول الله يتلو على المسلمين فى الموسم صدراً من سوره براءه فلا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته .

— ومن ثم لم يعد للمشركين بمكة مقام « وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله » وتتابعت الوفود ولها من بعد حديث .

— ومن ثم أذن رسول الله فى القبائل بالحج الأكبر وسار المسلمون فى الخامس والعشرين من ذى القعدة من السنة العاشرة من الهجرة وقد تجمع له مائة ألف مسلم من شبه الجزيرة متطامين إلى بيت الله الحرام ، ملبين محرمين فلما أن اجتمعوا فى عرفات خطبهم رسول الله خطبته الجامعة وأنزل الله قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » فلما سمعها أبو بكر انشج يبكى والرسول يناديه

أن على رسلك يا أبا بكر وقد وعى الحصيف الذكى أن رسالة النبى قد تمت وأن يوم لقاء ربه قد دنى .

— ورجع رسول الله إلى المدينة بعد أن أتم الله عليه نعمة الحج الأكبر : وبعد أن شهدت هذه الأفواج الضخمة معه هـذا الموسم وأخذ يعد العدة لغزو الروم ، وجعل أسامة بن زيد على رأس الجيش وخرج أسامة إلى الجرف يتجهز وأصحابه ، وإذ برسول الله يمرض فيطول مرضه ويضطرب الأمر بالمسلمين ثم ينتقل إلى بيت عائشة وتشتد به الحمى ويخرج إلى المسجد معصبا ويقول للناس : إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة وبين ماعنده فاختار ماعند الله ، انى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى يدا من أبى بكر ، وإنى لو كنت متخذا من العباد خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا ولكن صحبة وأخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا .

أنفدوا بعث أسامة ...

يامعشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً فان الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد وإنهم كانوا عيبتى التى آويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم .

ثم ثقل به المرض وقال : مروا أبا بكر فليصلى بالناس .

ولما سمع عمر يكبر بصوته الجهير قال : فأين أبو بكر ، يأبى الله ذلك والمسلمون .

وقالت فاطمة لما اشتد به المرض : واكرب أبتاه ، فقال : لا كرب على أبيك بعد اليوم .

ثم جاء وعد الله ، ووعده الحق فكان يرفع رأسه ويقول : اللهم أعنى على سكرات الموت .

وشخص ببصره وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة .

قالت عائشة خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق

ولحق رسول الله بالرفيق الأعلى وجاء أبا بكر فنظر إلى وجه رسول الله وهو مسجى فى برده وقبله وقال :

بأبى أنت وأمى يارسول الله : ماأطيبك حيا وماأطيبك ميتا صلى الله عليه وسلم ؟

صورة وصفية

* كان رسول الله متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ليست له راحة ، ولا يتكلم من غير حاجة ، طويل السكوت ، وكان سكوته على أربع : الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكير .

* يخطو تكفؤاً ويمشى هونا . إذا التفت التفت جميعا ، خافض الطرف . أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره على وجه أحد

* إذا أشار أشار بكفه كلها . وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها وضرب بابهامه اليمنى راحته اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام .

* يسرع فى مشيته ، يرفع يديه حين يدعو حتى يرى بياض أبطه ، يتلفت بكل جسمه ، يغضب كأنما يفقأ فى وجهه حب الرمان ، ينام وقلبه مستيقظ .

* * *

هذه صورة مما أجمعت عليه كتب السيرة فى وصف مظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

علامات ومظاهر

جمع الله لهذه الشخصية من كريم التوريث ومن بليغ الموهبة ومن فيض الوحى والهدى ماجعلها الشخصية الأولى فى تاريخ الإنسانية وفى تاريخ الزعامة والقيادة وفى تاريخ الرجولة والبطولة

محمد رسول الله هو أنموذج الإنسان الكامل . ورسالته مثال رفيع فى الخير والجمال والحق للدنيا جميعا : ومنذ بزغ فجر هذه الرسالة وأذن صلى الله عليه وسلم بها ، وأمره وأمرها متصل بكل أحداث الدنيا وتقلباتها فى الشرق والغرب ، فما يمر فوق هذا الكوكب حادثا صغيراً كان أو كبيراً إلا وهو متصل برسالة الإسلام ورسوله من قريب أو بعيد .

كانت البشرية قبل أن يبعث صلى الله عليه وسلم تمضى فى طريق قد طال والتوى وأغلس، فما أن أرسله الحق بالحق حتى اعتدل هذا الطريق واستوى وأضاء ، وارتقت البشرية به وبدعوته مرتبه أخرى إلى الإنسانية ، ومن ذلك اليوم ، إلى اليوم ، وإلى الغد البعيد ، ستظل الإنسانية كلما التوى بها الطريق أو دجى أو أصابتها الحيرة تلتمس فى تاريخه وهديه ورسالته النور والخير والحق: أى ، تلتمس الأمم والشعوب تجارب أمة تكونت فى ربع قرن وسيطرت على الدنيا فى أقل من قرن .

يلتمس الزعماء تجارب أمام الزعماء ، الذى ساس القبائل الضارية فصرف عنها وحشية الجاهلية وأمدها بالإيمان والعدل . يلتمس الناس جميعا ، طلاب الرجولة والعزة وتكامل الشخصية الإنسانية ، كل صفات الحب والوفاء والصدق والقوة .

هذه الحياة القصيرة فى عدد سنيها والتى لم يتجاوز منذ البعث أربع وعشرين عاما من أعوام الناس ، قد غيرت وجه العالم تغييراً لا يزال لونه الجديد حياً قائماً تزيده القرون المتوالية قوة وامتداداً تزداد به الدنيا اقتناعا وإيمانا .

غيرت حياة النبى ودعوته مقاييس الحياة ، وعدلت اتجاه البشرية ، واستدار الزمن كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض واستمدت البشرية فيضها الإنسانى الضخم الذى مازال يدفعها إلى اليوم وإلى الأجيال الطويلة المدى من بعد نحو الحق والخير

نعم ، كانت رسالات الأنبياء والرسل جميعاً منذ بعث الله الرسل والأنبياء تمهيدا لهذه الرسالة وإعدادا وإرهاصا بالإسلام ومحمد والقرآن ، فلما جاء كان علامة على نضوج البشرية وصلاحيتها لتلقى رسالة الإنسانية العليا .

لاشك أن حياة رسول الله قبل أن يأذن الله له بالرسالة كانت حياة إنسانية تمتاز عن حيوات من حوله بالنقاء والعزلة ، ولا يحفظ التاريخ له فيها نشاطا أو حركة أو أثرا ، ولكنها

كانت على كل حال حياة غريبة أشد الغرابة فى جنوحها عن الاضطراب فى هذه البيئة الوثنية الحمقاء . كانت مزيجا من الأمانة والاعتكاف ، وكانت صوره من الترقب والانتظار ، وكانت النفس الصافية الطاهرة العفة التى اصطنعها الله لنفسه ، وصنعها على عينه ، قد تكاملت وأعدت ، ونشأت كالزهرة العاطرة من الأصل الطاهر العف ، بين هذه الأنفاس المحرقة من الضلال والاثم كما ينبت الورد من الأشواك .

هذه هى النفس التى أعدها الحق لتطوى صفحة الظلم والضلال وتنشر صفحة النور والتوحيد .

لم يعرف عن رسول الله قبل بعثة إلا أربع : هن عماد الشخصية الكاملة . ولسنا معها فى حاجة إلى مزيد من المعرفة عن حياته (١) الرحلة والتجارة (٢) الأمانة والذكاء (٣) حرب الفجار (٤) حلف الفضول

(١) أما الرحلة والتجارة فهما مرتبطان بجمعان بين معرفة الناس والبلاد ، والابتلاء بأخلاق الناس وطبائعهم ، والقدرة فى الحكم على الأمور ، وسداد التقدير للتصرفات والفهم للأوضاع وتلك عدة أصحاب الرسالات فى فهم طبائع الناس واكتناه سرائرهم ودراسة نفسياتهم .

وقد برزت نتائج هذه (الدعامات) فى حياة الرسول بعد الدعوة بأجلى معانيها، فقد عرف صلى الله عليه وسلم بالفراسة النافذة والفهم

الدقيق لما يدور فى خواطر الناس، وعرف بالقدرة على سير أغوارهم واكتناه دخائلهم : أليس هو القائل : الناس كأبل مائة لاتجد فيها راحلة ، أليس هو الذى كان يخاطب كل قبيلة بلهجتها ولسانها أليس هو القائل : خاطبوا الناس على قدر عقولهم .

وقد عرف صلى الله عليه وسلم بالاستنتاج اللماح، وسرعة البديهة ومعرفة أقدار الناس وما يصلحون له وما يحسنون أداءه وينهضون به من أمور . على خط لم يتيسر لكثير غيره

(٢) أما الأمانة والذكاء فهما عدة المصلح وقائد الرأى يكون بهما محبوبا مهيبا ، الأمانة مبعث الحب والذكاء مبعث المهابة ، وقد برز هذا المعنى فى رسول الله جليا واضحا يوم حكمته القبائل المختلفة على نفسها فى أمر الحجر الأسود ، وقالوا نحتكم لأول قادم ، فلما أشرف : قالوا . . هذا هو الأمين ، قد رضينا به حكما ، فحكم لهم فى أمر الحجر بما أرضاهم . وصرف خصومتهم فى سرعة خاطر ، وحضور بديهة ، وتصريف للأمر ، عجزت عنه هذه القبائل مجتمعة ، وعجز عنه كل زعيم من زعمائها منفردا .

(٣) اشترك صلى الله عليه وسلم قبل البعثة فى حرب الفجار ، تلك مهمته الكبرى ، درب عليها قبل أن يكلف ، وقد عرف عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان فى أول هذه الحرب التى امتدت أكثر من ثلاث أعوام ، يحمل السهام إلى أعمامه بعد أن يجمعها من مساقط العدو . ثم أتيح له أن يشترك بعد فى إلقائها وقذف أعدائه بها .

(٤) واشترك ﷺ فى حلف الفضول وتعاهدت فيه قريش على نصره المظلوم حتى يؤدى حقه وكان ﷺ يذكره فيقول : « ما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم ولو دعيت به لاجبت » وهذه الركيزة الرابعة تمثل جانب الوفاء والإخلاص ، الذى أخذ صبغته العملية يوم بركت القصواء فى ثنيه المزار بالحديبية فقال « إنما حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعونى قريش إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » . . .

* * *

وهكذا يتبين أن فترة ماقبل البعثة وهى الفترة التى امتدت منذ وعى الصبا الذى يبرز ويتكامل ـ عادة ـ فى سن الخامسة عشرة وينتقل بأدوار الشباب والفتوة إلى الرجولة على حدود الأربعين ـ فى هذه الفترة برزت دعائم الكمال فى شخصية الإنسانية ﷺ على وجهها الممتاز .

خبرة ودراسة للناس من الرحلة والتجارة ، وإعجاب وتقدير من الذكاء والأمانة ، وجهاد ونضال ودربه على الحرب والقتال ، ثم وفاء ونجده

ولو لم يكن فى حياة الرسول قبل البعثة غير هذه الدعائم الأربع لكفاها دليل على إرهاصات الشخصية الممتازة

التى تتأهب لقيادةالانسانية المعذبة . والرجولة الكاملةالتى تتأهل لحمل رسالةإصلاحية عظمى،والتى تأتى من بعد بالأعاجيب بما يصل إلى ذروه المثل العليا التى تظل نبراساً يحتذى على طول الزمان ومرور الأجيال .

تلك « علامات » « الرجل »قبل الدعوة .

وهذه « مظاهر » الرسول ، صاحب الرسالة ، والوحى ، والمصلح الإجتماعى .

برز فى نواحى البطولة وأخذت الرسالة مجامع قلبه فأنفق فيها وقته وحياته وعاش لها .

برز فى الرجولة والعبادة والمشاركة الوجدانية الإجتماعية ، وبرز فى السياسة والقيادة الحربية والزعامة الشعبية .

استنبىء على رأس الأربعين ، فى سن الكمال والرجولة ، حتى لا تطغى الرسالة على جوانبه الإنسانية ولا يسلبه الوحى خصائصه الشخصية .

جمع الله له الوحى الربانى ، والإجتهاد الإنسانى .

اصطنعه الله للدعوة . فعاش لهاولم يأخذ عليها أجراً « قل لا أسألكم عليه أجرا »

عمل بيده فلم يعش كلا ، وتزوج فنفى عن دعوته الرهبانية .

أوتى صفاء الذهن واعتدال المزاج إلى قوة الجسم وحسن الهيئة . . .

جمع الله له بين الثقة بالنفس ، والشجاعة ، والتواضع ، وقوة البيان وظاهره بعد ذلك بالوحى وتأييد السماء

أعطاه الله خمساً لم تعط لنبي من قبله : نصر بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت له الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمته أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت له الغنائم ولم تحل لأحد من قبله . وأعطى الشفاعة ، وكان النبى يرسل لأهله خاصة وأرسل صلى الله عليه وسلم للناس كافة .

جمع الله له بين « اليتم » و « الفقر » فصرف عنه بهما شر الترف الذى يحطم عزائم الرجال ، وجعله مثلا للفقراء فلا يرون فى الغنى مقياس لمرضاة الله ، وعافاه من تدليل الطفولة وشوائب الثراء . ولطالما قال : اللهم ارزقنى كفافا وارزق آل محمد كفافا ، اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين . وقال : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقه .

اصطفاه الله ، وأمر المسلمين بالصلاة عليه ، وأخذ العهد على الأنبياء بالإيمان به ونصرته وأقسم الحق تبارك وتعالى بحياته (لعمرك أنهم لفى سكرتهم يعمهون) .

موقفان حاسمان

كانت (الهجرة) فيصلا بين الواقع المرير لثلاثة عشر عاما من الاضطهاد والنضال والمقاومة وبين حاضر جديد ، تأذن الله فيه للمجاهدين بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير .

إن فى ذكرى الهجرة وحدها « شمائل للقيادة » تزهو على التاريخ ، وما طوت صفحاته من أحداث البطولة (للعظماء) الذين قال عنهم أهل الغفلة أنهم عظماء وأن فيها لسموآ يزرى بكل هذه الأحداث متجمعة ، وأن فى بقاء الرسول الحبيب فى مكة بعد أن أذن لأصحابه بالهجرة ، وهو يرقب جموعهم تنحدر إلى الشمال فتمضى فى غفلات الليل ، وتحت أجنحة الظلام تطوى هذه القفار ، لا تبالى ما تلاقى من آلام السرى ومتاعب الاختفاء ، ولا تسأل عما تركت وراءها فى مكة من أهل وما خلفت من أبناء أو أموال ، وهى فرحة مشرقه يزيدها هذا الفرح قوة على المضى إلى (يثرب) التى آوت ونصرت .

إن فى بقاء الرسول فى مكة حتى تنتهى هذه الأفواج إلى مقرها وحتى لا يبقى فى مكة من المؤمنين المجاهدين إلا ثلاثة . لمثل من أمثلة القيادة الحازمة فى رجولتها وشجاعتها وصبرها قل أن يدانى ، وهو مثل لم يعرف من قبل لبطل من الذين قالت عنهم كتب التاريخ أنهم أبطال . ! !

قائد دعوة ، يواجه الخصوم العتاه ، بنفسه ، من غير أنصار ، ويظل باقيا فى مكة مقيما لا يبرح حتى يسبقه كل أنصاره إلى المدينة . وهو لا يمضى حتى يطمئن إلى أنه قد أسلم الكتيبة المؤمنة إلى مكانها المأمون ، ان هذا لما نزهوا بذكراه على الأجيال ولما يبرز فى حادث الهجرة فيشع منه النور والقوة والخلود .

إن حادث الهجرة هو المرحلة الثانية للدعوة الإسلامية الأولى انتقلت به من الدعوة بالكلام والاقناع والصبر والاحتمال والريث والترقب والمدارة والتقية ، إلى المكاشفة والمواجهة وإلى المقاومة والنضال وإلى بذل الدماء رخيصة فى سبيل تركيز الراية وتوسيد النظام ، أى أنه الانتقال من دور (الدعوة) إلى دور (الدولة) .

. . . هذا موقف ، إذ نذكره للقيادة المحمدية فى مستهل دورها الثانى على مافيه من رجولة قوية وشجاعة صادقة ، تتصل بالسكينة المطمئنة إلى تأييد الله ونصره ، لاننسى أن نذكر حادثا آخر فى مستهل دور (الدعوة) الأول ، لايقل بروزاً ولا قوة

وسيظل هذا وذاك ، من الأضواء الباهرة التى يبعثها منار القيادة المحمدية ، هديا للنفوس الخيرى ، يصل بها إلى شاطىء الحياة الكريمة ، هذه الحياة الباذلة الفدائية ، الصادقة الإيمان ، الصادقة البذل والفداء .

ذلك هو حادث الحوار بينه وبين عمه أبو طالب ، حين أزعجه القوم بأمر دعوة الرسول ، وحين هاجت قريش وماجت ، وعندما انكشف بها ماوراء الدعوة من صراع بين باطلهم المتهافت وحقه الخالد . فجاءوا إليه يطلبون منه أن يضع حداً لأمر محمد صلى الله عليه وسلم ويعرضون عليه العروض ثم يهددونه أشد تهديد ، ومايلبث أبو طالب أن يسعى إلى رسول الله يحدثه وهو يظن أنه سينال مايريد منه وأنه واصل إلى أعماق نفسه بما يلق إليه فيحدثه ويحدثه حتى يقول له فى ختام قوله (إن قومك أنذرونى فابق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق) .

وتقف الدنيا كلها ، فى خشوع ورهبة تنتظر ماذا سيقول نبى هذه الدنيا . وإذا برسول الله ﷺ . يقول لعمه « والله ، ياعم ، لو وضعوا الشمس عن يمينى والقمر عن يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه : ماتركته »

وينظر أبو طالب إلى رسول الله فتأخذه الرهبه وتنزع هذه الألفاظ القوية الصادقة كل أثر فى نفسه مما قال له الناس من قريش فما يلبث أن يقول له فى حماس : إذهب ياابن أخى فقل ماأحببت ، فو الله لا أسلمك لشيء أبداً »

هذه وقفه من وقفات القيادة الحازمة على رأس المرحلة الأولى ، وليس من حول رسول الله إلا حول الله والقليل من المستضعفين الذين يخافون أن يتخطفهم الناس

ثم تلك وقفة أخرى على رأس ثلاثة عشر عاما من الاضطهاد والصبر والاستعداد . هما موقفان حاسمان فى تاريخ الدعوة لم يكن لرسول الله فيهما سلاح : إلا الثقة بالله ، والإيمان بالدعوة ، ورجولة القيادة .

وصلى الله عليه وسلم ؟

